طه حســـين ورؤيته النقدية في معلقة طرفـــــة بن العبد ـ دراسة وصفية تحليليةـ

د. خليفة أبوبكر عبد القادر ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم المرج. جامعة بنغازي
Khlifaalkndro77@gmail.com

Taha Hussein and his critical view of Tarafa ibn al-Abd's Mu'allaqa "A descriptive and analytical study

Abstract in English
This research, which I titled "Taha Hussein and his critical vision in the Mu'allaqat of Tarafa bin al-Abd", a descriptive and analytical study, seeks to answer three important questions represented in the problem of the study, which are:
-What are the sources of Taha Hussein's critical vision in the Wednesday Hadith, and how was it formed?
-What are the patterns of this vision?- What are its manifestations?
The importance of the study stems from the fact that it sheds light on a vital topic that has not received the attention of researchers to study Taha Hussein's critical thought; in which he was influenced by French culture and literature, and the extent of the exaggeration of the doctrine of skepticism Cartesian and Western values and ideas that appeared in his critical views.
The study relied on the descriptive analytical approach that describes phenomena and then subjects them to accurate scientific analysis to reach its goal. It also followed the inductive approach as a framework and course for this study in order to reach results that bring together divergent ideas in the reader's mind; and because the research is also an applied critical study, this approach helps researchers to clarify and clarify Taha's critical views that he presented in his book. The research came in an introduction, two chapters, a conclusion, and a list of references and sources.
Keywords: Cartesian rational criticism, philology and history, Wednesday talk.

الملخـــــص:

يســـعى هذا البحث الذي عنونته بـ "طه حسين ورؤيته النقدية في معلقة طرفـة بـن العبد "دراسة وصفية تحليلية" إلى الإجابة عن أسئلة ثـلاث مهمـة متمثلـة فـي إشـكالية الدراسة وهي:

ـ ما هي منابع الرؤية النقدية عند طه حسين في حديث الأربعاء، وكيف تشكلت؟
ـ وما أنساق هذه الرؤية؟ ـ وما تجلياتها؟
وتنبع أهمية الدراسة كونها تسلط الضوء على موضوع حيوي لم يحظَ باهتمام الباحثين لدراسة الفكر النقدي لدى طه حسين؛ الذي تأثر فيه بالثقافة الغربية والأدب الفرنسي خاصة، ومدى غلو مذهب الشك الديكارتي والقيم والأفكار الغربية التي ظهرت في آرائه النقدية.
وقد اعْتمدَتِ الدراسةُ على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم بوصف الظواهر ثم يخضعها للتحليل العلمي الدقيق ليصل إلى مراده، كما اتبع كذلك المنهج الاستقرائي إطارا ومساقا لهذه الدراسة بغية الوصول إلى نتائج تقرب متباعدات الأفكار في ذهن القارئ؛ ولأنّ البحثَ ـ أيضا ـ عبارة عن دراسة نقدية تطبيقية، ولذا فإنّ هذه المنهج يساعد الباحثين في استجلاء ووضوح آراء طه النقدية التي طرَحَهَا في كتابه. وقد جاء البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة للمراجع والمصادر.
الكلمات المفتاحية: النقد العقلاني الديكارتي، الفيلولوجي والتاريخي، حديث الأربعاء.

المقدمة:

من القصائد التي تنطبق عليها الرؤية الجمالية والإبداعية معلقة طرفة بن العبد التي حظيت معلقته باستحسان نقاد الشعر العربي وعاشقيه قديماً وحديثاً، ويبدو لي بأن ابن سلام الجمحي كان من السبّاقين إلى ذلك حين وضعه في الطبقة الرابعة، وقال متحدثاً عن طرفة ومعلقته "فأمّا طرفة فأشعر الناس واحدة، وهي:"

لِخَولة أَطْلالٌ بِبَرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقي الْوَشْمِ في ظَاهِرِ الْيَدِ(1)

وقد عــدّها الدكتور يوسف خليفة بأنها أجمل قصائد الشعر الجاهلي(2)، على الرغم من ذلك فإن الناظر في كتب المعلقات يلحظ اختلاف جامعيها في تسلسل المعلقات وعدد أبياتها، وبعد تحليل لتلك الكتب الجامعة يمكن الخلوص إلى أن معلقات امرئ القيس وزهير وطرفة من المعلقات المتفق عليها، ثم اختلف في الأسماء الأخرى، كما اختلف جامعو المعلقات وشارحوها في عدد أبياتها، فقد ذكر الزوزني وابن الأنباري في معلقة طرفة بن العبد مئة وبيتين، وذكر التبريزي مئة وخمسة أبيات، وابن النحاس

قد ذكر مئة وأربعة أبيات، أما القرشي فقد ذكر مئة وسبعة عشر بيتاً. ولما تراوحت الآراء في عدد الأبيات بين مئة وبيتين وبين مئة وخمسة أبيات، فقد جمعنا واعتمدنا ما اتفقوا عليه وهو مئة وخمسة أبيات، على خلاف رأي القرشي الذي جعلها في مئة وسبعة عشر بيتاً.

المبحث الأول ـ طه حسين وتوظيف المنهج العقلي في تحليل النصوص التراثية:

مما لا شك فيه أن لطه حسين دورًا بارزا في النقد الأدبي، شئنا ذلك أم أبينا، رافضين بروزه أو مقتنعين، حيث إنه اعتمد منهجا عقليا تحليليا في دراسة الشعر الجاهلي، بما في ذلك معلقة طرفة بن العبد، وقد تحدث عن هذه المعلقة في كتابه حديث الأربعاء وطرقها بزوايا جديدة غير مسبوقة، هذه الزوايا النقدية متماشية مع منهجه التحليلي العقلي وهو الشك في كل شيء، وكان يرى أن تدرس القصائد الشعرية القديمة بعيدة عن التقديس، مما حتّم إثارة النقاد حوله، فثاروا عليه، وردوا على شكوكه فيما جاء به. والحق أن طه أصاب في بعض تشكيكه في الشعر الجاهلي، ولكنه غالى في ذلك حتى أنه طعن في رواة الشعر المعروف عنهم بالصدق والعدل، فطعن طه في أبي عمرو بن العلاء في عدله وصدقه كأنه يطعن في القراءات السبعية فأبو عمرو بن العلاء أحد رجالها ، و- أيضا - مما أثار نقمة الناس حول طه أنه لم يصدق وجود شخصيتي سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام. فكيف لطه أن ينكر ما جاء به القرآن حول هذين النبيينِ في آيات عدة؟!، بل سميت سورة باسم إبراهيم، والحق أنني لا أريد أن أتعجل بالحكم عليه، والذي أودُّ أن التزمَ به هو ذكرُ مثالبه ومناقبه، وسأكون منصفا فيه ما استطعت في ذلك سبيلا.

وأمّا كتاب حديث الأربعاء فقدّم فيه طه قراءات نقدية ورؤى تحليلية لبعض القصائد المعلقة، وقد تناولتُ في بحث سابق لي بعنوان "طه حسين ورؤيته النقدية في معلقة لبيد بن ربيعة". وقد استخدم طه منهج الشك العلمي والتحليل العقلي في كتابه آنف الذكر، فقد كان تأثيره واضحا على القراء في تغيير طريقة قراءة هذه القصائد، فيعدُّ طه أول من نثر القصائد نثرا ليسهل على القارئ صعوبة ألفاظها ومعانيها، فقد فكّ القصائد وأعاد تفسيرها بأسوبه الرائع، ولا تخلو تفسيراته من آرائه النقدية التي قد لا تعجب النقاد والمفكرين.

فالمنهـــج الذي اعتمده طه في تحليل القصائد جمع بين الدراسة التاريخية واللغوية

والاجتماعية والثقافية، مع التركيز على الأبعاد النفسية للشعراء، فمن الناحية الإنسانية والفلسفية نجد طه لم يكتفِ بالنقد من الجانب اللغوي، بل نراه يطرق الجوانب النفسية للشاعر، وقد أشار أكثر من مرة على أن طرفة كان يحمل رؤى فلسفية للموت والقدر والاستمتاع بالحياة. فمعلقة طرفة عند طه لم تكن مجرد وصف للطبيعة والناقة وحالة النفور بينه وبين إخوته وأبناء عمومته، بل هي رؤية فلسفية تصف لنا الصراع بين الإنسان مع المصائب والموت.

ولا تخلو أيضا تحليلات طه النقدية من ورود الشك وعدم صحة نسبة القصيدة لصاحبها أو أبيات منها، بل وصل به الحال أن شك في قصيدة برمتها، وحجته في ذلك أن الشعر نُقِلَ إلينا شفاها غير مكتوب. ورأى طه أن هناك أبياتا شعرية أضيفت أو تم تعديلها حتى تناسب الذائقة العربية الإسلامية، والرد على ذلك أن الرواة الذين نقلوا لنا الشعر وجدوا أن هناك أبياتا فيها شركيات تدعو لعبادة الأصنام والأوثان، وهذا مناقض لعقيدة الإسلام وهي توحيد الله عز وجل.

وأيضا من الأشياء التي سلّط طه الضوء عليها وهي أن لكل شاعر لغته وأسلوبه الذي عرف عنه، فامرؤ القيس ما يميزه عن غيره هو التصوير الجزئي والكلي، أما طرفة تميزه نظرته للحياة وفلسفته للموت. وزهير عُرِف عنه الحكمة والأخلاق النبيلة، والحارث بن حلزة عرف بالخطاب السياسي الشعري، وأما عمرو بن كلثوم فعرف بالجبروت والتعالي. فطه من حسناته فَطِنَ أن لكل شاعر لغته وأسلوبه الخاص به.

والحق أن طه تأثر به قراؤه، فقد مهّد الطريق لمنهجه "الشك والتحليل العقلي" لدراسة الشعر القديم، فظهرت عندنا دراسات تهتم بالتاريخ والأنثروبولوحيا، ومن النقاد الذين ساروا على نهجه فيما بعد جابر عصفور، ونصر حامد أبو زيد.

وطه كما أسلفنا القول أنه أول من استخدم أسلوب النثر في القصائد الجاهلية، فأعاد صياغة الشعر إلى نصوص نثرية بلغة سهلة قريبة من القارئ المعاصر، ومن الأشياء التي أضافها طه هو تفكيكه للصور البلاغية وتبسيط معانيها، وربط بين الأبيات الشعرية وعادات الجاهلية؛ لكي يقدّم فهما أعمق للنصوص الشعرية، ولم يكتف بذلك بل قدّم لنا نقدا في ثنايا نثره للأبيات، كالتشكيك في بعض الأبيات والتناقضات التي تحدثها القصيدة الواحدة.

وقد أثرت طريقته هذه على الأدب العربي، فجعل القصائد المعلقة قريبة للقراء دون استثناء، فليست محصورة الفهم عند المتخصصين فقط. فلم يكن طه مجرد ناقد بل كان مبسطا للأدب القديم وفي متناول كل من يقرأه.

ورب سائلٍ يسأل هل كان طه متأثرا بالنقاد الغربيين؟

الحق أن طه لم يكن نقده وليد البيئة العربية، بل تأثر بشكل واضح بالنقد الغربي، لا سيما عندما درس في جامعة السوربون، فتكونت شخصية طه النقدية بالمناهج الأوربية كالتحليل التاريخي، والمنهج الفيلولوجي أو المقاربة العقلانية للنصوص، وتأثر طه بأستاذه بول جيرالدي وأستاذته سوزان برسون التي أصبحت فيما بعد زوجه، وكان لها دور كبير في عقليته النقدية.

ومما لا شك فيه أن طه تأثر بمدرسة الشك الديكارتي، فَعُدّ أول من أدخل هذا المنهج للبلاد العربية، فتأثر برينيه ديكارت الذي كانت له عبارة شهيرة "أنا أشك، إذن أنا موجود".

وبدا هذا واضحا في مؤلفاته لا سيما حديث الأربعاء وفي الشعر الجاهلي، ولكن مما أفرط فيه طه أنه تعامل بفرضية أن هذا الشعر جله أو كله منحول وموضوع، ثم بدا أنه تعامل مع هذه الفرضية على أنها حقيقة وليست فرضية افترضها.

ومن المدارس التي تأثر بها طه المدرسة التاريخية الألمانية مثل فيلهلم شميدت وإدوارد ماير اللذينِ أكدا على دراستهم النقدية في ضوء المنهج التاريخي الاجتماعي، وقد بدا تأثره بهما في كتابه الأيام، فسرد سيرته سردا تاريخيا واجتماعيا.

كتاب حديث الأربعاء:

هذا الكتاب من أهم مؤلفات طه التي برزت فيها شخصيته النقدية والتي أثر تأثيرا قويا في قرائه، فبرزت قراءاته النقدية للأدب العربي قديمه وحديثه، واستخدم أسلوبا تحليليا عقليا، فالكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نقدية، فربما كانت لشاعر واحد عدة مقالات، ولشاعر آخر مقالة واحدة، كان ينشر هذه المقالات في الصحف المصرية، ثم جمعها وجعلها في ثلاثة أجزاء، وعنونها بحديث الأربعاء، وقد تحدث في هذه المقالات عن شعراء جاهليين وإسلاميين وقضايا نقدية بأسلوب بسيط ولكنه اتسم بالعمق. فنراه مرة يتناول جماليات الأبيات، ومرة أخرى نجده يتساءل عن أصالة النص وظروف إنتاجه، ومرة يتحدث عن الرواة المشكوك في رواياتهم. فالشك الديكارتي يلازمه في كل أوقاته، فنراه يرفض ولا يسلم مطلقا بالروايات التاريخية

التي نقلها الرواة الأوائل، ويتهمهم بالانتحال كلهم لا يستثني أحدا منهم، فالشعر القديم عنده كالسير والأخبار والغزوات نقلت مشافهة فدخلت عليها الأكاذيب.

فكثير ما نرى طه يقارن بين أساليب الشعراء الجاهليين كامرئ القيس وعنترة ولبيد وطرفة وزهير، وقد أشار إلى الاختلاف بينهما في عدة مواضع من الكتاب، فأكد أن لكل شاعر شخصيته الأدبية.

وقد انتقد طه الأدباءَ المعاصرين الذين يحاكون الشعراء القدماء دون أن تكون لهم بصمة ورؤية حديثة في شعرهم. ودعا إلى التجديد في كل شيء في المسرح والشعر الحر متأثرا بذلك مما عاصره في فرنسا، وطالب كثيرا بأن يعكس الأدب ويعبر عن قضايا المجتمع، ولا يكون الأدب محاكيا للقديم ولا يمت للحاضر بصلة.

أما عن أسلوبه النقدي في كتابه حديث الاربعاء نجده يتسم بالوضوح والسلاسة، على الرغم من عمق تحليلاته، فاستخدما جملا وعبارات قصيرة وابتعد عن الطويلة، وكانت له تكرارات فنية رائعة، مع أسلوب راق في الحوار، مما جعل الكتاب ذا طابع خطابي محببا للنفوس ولا تصاب بالملل أثناء قراءته. وقد يلجأ طه في أسلوبه إلى السخرية لا سيما عندما يتحدث عن النقاد المحافظين الذي يتمسكون بالنهج القديم للقصيدة العربية.

ومن الملاحظات أو الاستدراكات التي وصل إليها الباحث أثناء قراءاته المتعددة لكتاب حديث الأربعاء أن طه كان متسرعا في تحليله للشعر الجاهلي ولم تكن إثباتاته قاطعة لما ذكره عن الشك والانتحال للقصائد والأبيات الشعرية، وهذا يبدو لنا واضحا بتأثره بمدرسة الشك الديكارتية، وتناسى أن للأدب العربي خاصيته تختلف اختلافا كليا عن الآداب الغربية.

ومن الاستدراكات أيضا أن طه في منهجه يبدو لنا تغريبيا، فمرة تراه يهدم التراث العربي كليا، مقدما الأدب الغربي عنه، ومرة نجده يتهم الرواة دون استثناء أحدهم ولا يقر بوجود شخصية نبينا إبراهيم عليه السلام.

والحق أن كتاب حديث الأربعاء علامة فارقة في النقد الأدبي المعاصر، فقد سلط الضوء فيه على النقد الفيلولوجي والتاريخي، والشك العقلاني الديكارتي، وتجده في كثير من المرات يعقد مقارنة بين الأدبين العربي والغربي. وعلى الرغم من الانتقادات والاستدراكات حول الكتاب إلا أن أثره مازالت حاضرة في نقدنا، فيعد الكتاب مرجعا أساسيا لأي باحث في أدبنا العربي.

وحديث الأربعاء يبدو أن طه تأثر بأسلوب جان جاك روسو الذي كتب سيرة ذاتية لنفسه ووضع لها عنوانا "الاعترافات" فقد استخدم فيها روسو سردا ذاتيا تأمليا بدلا من الأسلوب التقليدي في كتابة السير الذاتية.

المبحث الثانـــي ـ نقد طـــه لمعلقة طرفة:

طرفة عُدّ من أشهر شعراء في الجاهلية، وعلى الرغم بموته وهي في سن الشباب فلم يتجاوز عمره الرابعة والعشرين، إلا أنه وضع في مرتبة متقدمة من بين الشعراء، وعدت قصيدته التي نحن بصدد الحديث عنها من المعلقات السبع، فشعره يعكس لنا نظرته الفلسفية للحياة والموت، ويعكس لنا موقفه من مجتمعه القبلي وعلاقته بإخوته وأبناء عمه، ندرك ذلك بإحساسنا عند قراءتنا لشعره فنشعر بالظلم الذي وقع له، وتمرده على القيم القبلية. وقد رأى طه أن طرفة كان متقدما على الشعراء الجاهليين في نظرته وفلسفته للحياة، فلم تكن معلقته فخرا ولاهجاء أو غزلا أو مديحا، بل كانت ذات بعد فلسفي على الرغم من صغر سنه.

فالحياة في نظره مرحلة قصيرة يجب الاستمتاع بها قبل الموت المفاجئ، ففي العديد من أبيات المعلقة نجده يتحدث عن الموت الذي لا مهرب منه، فمن الأفضل أن تستمتع بحياتك.

وطه يحاول أن يبرز لنا في تحليل دقيق ورائع أثر هذه الفلسفة في الصور الشعرية التي يصوغها الشاعر وأثر هذه البيئة البدوية في تشبيهاته خاصة حين يقول:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بِاليَدِ
متى ما يَشَأ يَوماً يقدهُ لِحَتْفِهِ ومن يكُ في حبْلِ المَنيةِ يَنْقَدِ[3]

برزت افتتان طه حسين بهذين البيتين على لسان صاحبه: "أما أنا فمفتونٌ بهذين البيتين إلى غير حد، هذا التشبيه البدويُّ الصادقُ الصارمُ الذي لا يدعُ سبيلاً إلى الأمل، ولا يشق عليك باليأس المظلم القاتم، وإنما هو مؤنسٌ في شئ من الدعة والحلاوة والإذعان المطمئن المحبب إلى النفوس...هذا التشبيه الذي لا تكاد تسمعه وتفهمه، حتى ترى نفسك في البادية مع الشاعر تسمع له، وتفهم عنه، وتنظر إليه وتهم أن تسير سيرته، لولا أن لك ديناً ينبئك بأنّ للحياة غاية أخرى غير اللذة، وبأن الموتَ ليس هو الأمد الذي ينتهي إليه الأحياء"[4]

فيستخدم طرفة الجمل المقيد الذي يقوده صاحبه بحبل طويل، فيقول له أن الموت لا مفر منه، فالحياة وفق نظرته الفلسفية بلا معنى فلهذا عليك أن تستمع بها قبل فوات الأوان، وهذا ما يسمى عندنا في لغة العصر بالفكر الوجودي. وتبدو لنا فلسفته واضحته اتجاه الحياة عندما يقول:

وإن كنتُ لا أسبي الرجالَ واتّقي حُدودَ الهوى فالهَمُّ قد يكونُ بِذا جدِ

وهذه فلسفة أبيقورية التي تدعو إلى الاستمتاع بملذات الدنيا، ولكن يجب عليك أن لا ترمِ بنفسك إلى التهلكة (5)

وقد عانى طرفة من ظلم إخوته له لا سيما بعد وفاة أبيه فلم يعطه أعمامه وإخوانه ميراثه، فوجد نفسه مظلوما فقيرا محروما من أملاك أبيه، وهذا ما بدا لنا في شعره حيث تمرد على تقاليد قبيلته وأعرافها، فالقبيلة لم تجلب له حقه من أقرب الناس إليه، فأين العدالة والإنصاف؟ فالبقاء في نظره للأقوى، يقول:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

فظلم الأقارب في نظره هو أشد وقعا من ظلم الأعداء؛ لأنه يأتي من الداخل وليس من الغرباء، ظلم حيث لا تستطيع أن ترفع السيف أمام ظالمك فهو أخوك وعمك.

فبعد وفاة أبيه وجد نفسه محروما من كل شيء، مما اضطره إلى أن يعيش مشردا فقيرا، ولم يكن الخلاف بينه وبين إخوته وأبناء عمومته مجرد خلاف مالي، بل صراعا على المكانة الاجتماعية في القبيلة، ففي نظرهم هو شاب متهور يضيع المال على ملذاته في الشرب والصيد وعلى الغواني.

وهكذا يرى طه حسين أنّ هذا الأثرَ الفنيَّ قادرٌ على أن يصرفه عن حياته ونفسه، وأن يجتاز به إلى فضاءات الشاعر النفسية والبيئية بما يمتلكه من قدرة على تصوير خلجات نفسه، وبراعة في نقل أفكاره وفلسفته في غير تكلف أو تصنع، مستعيناً في ذلك بمفردات البيئة التي تحيط به والتي تؤسره وتستحوذ على اهتمامه: "فالشاعر تشغله الظواهر الحسية المتكاملة في المشبه به، وهو يريد استقصاءها لإضافتها إلى المشبه الذي يعنى بوصفه"(6). وعلى ذلك نستطيع أن نستوضحَ السببَ وراء ارتباط

الشاعر ببيئته، بل نستطيع أن نتبين الغاية من وراء هذا الارتباط، فكلّما كان الشاعرُ ممتزجاً ببيئته، محباً لها، محيطاً بدقائقها، استطاع أن يعبرَ في صدق عن دخيلة نفسه من المشاعر والأفكار في صورة عميقة ورائعة تجذب إليها المستمع أو القارئ دون جهد أو عناء، وهذا ما لاحظه طه حسين في تشبيهات طرفة بن العبد.

ويبدو طه حسين في عرضه لمعلقة طرفة بن العبد متأرجحاً بين منهجه القديم الذي تبناه "في الشعر الجاهلي" وبين منهجه الجديد، فها هو يعاود شكوكه في بعض هذه المعلقة، وكأنّه لم يستطع أن يتخلص نهائياً من تلك السمة التي طبعت منهجه العقلي السابق، ألا وهي نزعة الشك المتأثرة بفلسفة ديكارت، فعلى الرغم من أنّ بعض الباحثين يرون أن طرفة قد أجاد في وصف الناقة فلم يترك فيها صغيرةً ولا كبيرةً إلا رسمها، وكأنه ليريد أن ينحتَ لها تمثالاً، لا يغادر ذاكرة الجاهليين[7]. فإنّ طه حسين قد رفض هذا الجزء من المعلقة ورأى أنه أقحمّ عليها فهو مصنوعٌ ملفقٌ، فهذه الناقة ليست ناقة طرفة، والدلائل كثيرة على ذلك أهمها:

أولها: التفاوت الواضح بين ألفاظ باقي المعلقة وهذا الجزء الذي يظهر براعة في الإحاطة بأوصاف الإبل وتكلفاً للألفاظ الغربية، الأمر الذي جعل طه حسين يظنُّ أنها موضوعةٌ صنعها عالمٌ من علماء اللغة.

أما الدليل الثاني: الذي يقدمه طه حسين فهو أنّ طرفة قد وصف ناقته في أشعار أخرى ولم يصفْها على هذه الحالة من الجمود والثبات، ولا بهذه الألفاظ الغريبة[8] غير أن تلك الأسباب التي يقدمها طه حسين كمبررات لرفضه هذا الجزء من معلقة طرفة وإنْ كان لها وجهتها النظرية إلا أنّها لا تنهض كدليلٍ دامغٍ على ما أرادَ، فلقد سبق أنْ أطلعنا طه حسين على نصوص شعرية مختلفة للبيد برز فيها هذا التفاوت على مستوى اللغة والألفاظ بين بعضها البعض[9] إذن فتفاوت الشاعر الواحد في المستويات اللغوية أمر طبيعي ومنطقي. ولقد سبق أن نوّه إليه القدماءُ عند كثير من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، فضلاً عن أنّ طه حسين سبق أن أكّد على أنّ النصوصَ الشعريةَ التي وصلتنا لهذا العصر لا تمكننا من استخلاص الخصائص الفنية واللغوية التي تُميّز كل شاعر من هؤلاء الشعراء، فكيف به إذن يتخذ من هذا التفاوت اللغوي الذي أقرّه عند لبيد سبباً لرفض هذا الجزء من معلقة طرفة؟! ونحن نعلم أنّ معلقةً كهذه لم تكتب في وقت واحد، وكيف يتخذ من هذا التباين في وصف الناقة عند ذات الشاعر سبباً لإنكار وصف دون وصف؟! ونحن قد سلمنا له بصحة نتيجته السابقة التي تقول:

إنّ النصوصَ الجاهليةَ لا يمكن أن تحدد لنا الخصائص الفنية أو اللغوية التي يتبعها كل شاعر فليس هناك ما يعيننا على أنّ هذا الشاعر أو ذاك كان يتبع نهجاً واحداً لا يغيره في وصف الشئ، حتّى نقول إنّ طرفة اعتاد وصف الإبل متحركة عادية، فإنْ خالف هذا النهج جازَ لنا رفض هذا الوصف المخالف، وحتّى إن كان له نهج ثابت وغيره.(10)

فهل يعني هذا التغيّر وضعاً وانتحالاً؟! ولا يعدُّ تجديداً في نهجه، الذي ربما ملّه الشاعرُ فأراد أنْ ينسلخَ عنه.

ومهما يكن من أمر فإنّ الشكوكَ التي أيقظها طه حسين في عرضه لهذه المعلقة استيقظت، ولكنها استيقظت واهية ضعيفة، لم تستطعْ أن تلتهمَ كل المعلقة أو كل شعر طرفة كما سبق أن أتاح لها طه حسين، ولعلّ السبب في ذلك راجعٌ إلى أنّ هذه النزعةَ المتشككةَ لم تجدْ بجانبها تلك النزعة التي آزرتها في "الشعر الجاهلي" ألا وهي نزعةُ التجرد والحيادية، فلقد تغيّرت تلك الحيادية إلى تعاطف واستحال هذا التجرد إلى ارتباط وتواصل.

ومهما يكن حظ هذا الشك من القوة أو الضعف، فإن استمرار هذه النزعة يعدُّ دليلاً قوياً على أنّ طه حسين لم يتنازل عن كل نتائجه السابقة "في الشعر الجاهلي" وإنما ينحيها جانباً أو يخفف من حدتها أو يعتمدها بحسب ما تمليه الغاية الجديدة من درسه للشعر الجاهلي.

وهكذا يسمح طه حسين لهذا الشكِّ الخافتِ الصوت أن يستأصلَ جزءاً كبيراً من معلقة طرفة، فيتجاوز هذا الجزءَ الكبيرَ الذي يقف فيه طرفة على الأطلال ويشببُ بالمحبوبة ثم يصف ناقته، ليصلَ إلى الجزء الذي يثق في صحة نسبته لطرفة، وهو الجزءُ الذي يتحدث فيه عن نفسه وعن قومه. ذلك لأنّ طه حسين حينما عرَضَ لهذه المعلقة رأى أنه ليس بإزاء قصيدة لطرفة وإنما هو في أكبر الظنّ بإزاء بقايا قصيدة لطرفة(11)

وعلى ذلك فطه حسين يرى القصيدة تبدأ بداية حقيقية من عند قوله:

إذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَىً خِلْتُ أنَّنِي ... عُنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

ولستُ بحلّالِ التّلاعِ مَخَافةً ... ولكنْ متى يسترفدُ القومُ أرفدِ

فَإن تَبغِنِي فِي حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقِنِي ... وَإنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الحَوَانِيْتِ تَصْطَدِ

وإنْ يَلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِنِي ... إلى ذِرْوةِ البيتِ الرّفيعِ المصمّدِ(12)

لقد رأى طه حسين أنّ طرفة يقدمُ نفسَه في هذه الأبيات في ظرفٍ ولباقةٍ وخفةِ روح، ويكشف لنا عن ثقته القوية بنفسه، وتحمِّله لمسئولياته الاجتماعية، فلقد خُلِقَ لقومه قبل أنْ يُخلقَ لنفسه، فهو الفتى الذي يختصر شباب قومه اختصاراً، فيتمثل واجبه الوطني أقوى تمثل في وقت الحرب، أمّا في وقت السلم فهو كريمٌ لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين، ثم إنّه مع حداثة سنّهِ يشارك القوم الرأي والمشورة في وقت الجد، أمّا في غير هذا الوقت فهو يستمتع بما يتاح له من أوقات الفراغ في الحانات عند الخمارين، وهو كريمٌ دائماً حتّى في وقت لهوه واستمتاعه؛ لأنّه من أشرف البيوتات وأكرمها. هذه الصورة التي يقدمها الشاعر لنفسه كما صاغها طه حسين تعرض لنا صورةَ هذا الإنسانِ المتميز على أقرانه في علاقته بمجتمعه، ومسئولياته نحو هذا المجتمع، وقوله: "إذا القوم قالوا من فتى؟.." كناية عن رفضه للذل والجبن، فينبغي على الإنسان ألا يكون خاضعا لقرارات قبيلته الخانعة الظالمة، فليس لهذه القبيلة انتماء. فإذا فرغَ لذاته فإنّه يقدم لنا صورة تبدو مثار فخر وإعجاب عندما يقول:

نَدَامَايَ بِيْضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ تَرُوحُ عَلَينَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجْسَدِ
رَحِيْبٌ قِطَابُ الجَيْبِ مِنْهَا رَقِيْقَةٌ بِجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ
إِذَا رَجَّعَتْ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا تَجَاوُبَ أَظْآرٍ عَلَى رُبَعٍ رَدِ[13]

هنا يرى طه حسين طرفة صاحب مذهبٍ في اللهو وصاحب فلسفةٍ من ورائه، قد لا تعجب الآخرين، وقد تثير غضبهم وسخطهم عليه، لكنه لا يهتم بذلك طالَما أنّه مقتنعٌ بها. فهو ليس صاحب لذة غليظة تصدر عن الحس لترضي الحس، وإنّما هو صاحب لذة رقيقة تصدر عن تفكير وعن فلسفة استخلصها من اختباره للحياة، وعن حكم دقيق على حوادثها وخطوبها ونتائجها [14]

وهنا يعرض طه حسين لهذه الجدلية الشائكة التي يطرحها طرفة في معلقته والتي تتمثل في ارتباط الفرد بالمجتمع منن ناحية، وفي رغبته في التعبير عن ذاته الجامحة والمتنافرة مع تقاليد هذا المجتمع من ناحية أخرى.

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي وبَيْعِي وإِنْفَاقِي طَرِيْفِي ومُتْلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيْرَةُ كُلُّهَا وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيْرِ المُعَبَّدِ
رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

أَلاَ أَيُّها اللائِمي أَشهَدُ الوَغَى وَأَنْ أَنْهَلِ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي
فإنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يدي(15)

لقد عبر طه حسين عن سر إعجابه بهذه الفلسفة فقال: إنها فلسفة ساذجة تمثل حياة ساذجة صوّرها الشاعرُ فأجاد تصويرها. فما دامتْ حياة الشاعر ستنتهي بالموت فلا داعي لأن يتحاشاه، ولا مبرر لأنْ يزهد في متع هذه الدنيا، بل يجب عليه أن يغترفَ وينهلَ منها ما وسعه الاغتراف والنهل حتى لا يظمأ في موته، وعليه ألّا يعبأ بهذا الموتِ الذي تحملنا الأيام إليه بتعاقبها فيسوّي بين الكريم واللئيم والشجاع والجبان، فنحن جميعاً نُقَادُ إلى الموت الذي لا يخطيء أحداً أبداً، ولذلك فطرفة يستمتع بكل لذة وكل متعة في حياته قبل مماته، وقوله: "فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي..." هي استعارة "دفع المنية" ليشير إلى أن الموت شيء يمكن دفعه أو مجابهته، وهذه الصورة المجازية تعكس لنا مدى نظرته وفلسفته التمردية وأنه غير مبالٍ بالموت، فينبغي على الإنسان إذا لم يستطع الهروب من الموت فعليه أن يصرعه ويقف أمامه دون خوف وذعر منه.

وانظر معي قوله الذي يؤكد تلك النظرة العقلية التي تتفق مع كونه شاعراً لا ينتمي لأي دين أو عقيدة:

ولَوْلاَ ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الفَتَى وَجَدّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ
كَرِّي إِذَا نَادَى المُضَافُ مُجَنَّباً كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ
كَأَنَّ البُرِيْنَ والدَّمَالِيْجَ عُلِّقَتْ عَلَى عُشَرٍ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخَضَّدِ
كَرِيْمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا غَداً أَيُّنَا الصَّدِي
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِن تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيْحٍ مُنَضَّدِ
أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفِي عَقِيْلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرَى العَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ(16)

يُبْدِي طه حسين إعجابَه الشديد بهذا التشبيه الذي يجعل من الحياة كنزاً دائم النقصان، ومن الليالي رجالاً تسرف في الإنفاق من هذا الكنز الذي لابد وأن ينفذ وينتهي، هكذا يبدو طه حسين متعاطفاً مع هذا الشاعر ومع فلسفته ونهجه في الحياة.(17)

وهكذا يمضي طرفة في معلقته على هذا النحو من التصوير البارع والتشبيهات الرائعة التي يستقيها من بيئته البدوية حتى يصل إلى هذا العتاب الرقيق اللاذع لابن عمه مالك لمنعه إياه إبل أخيه. وفي قوله:

أَرَى العَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَـةٍ وَمَا تَنْقُصِ الأيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ

في هذا البيت ينتقد بخل إخوانه وأبناء عمومته، فالحياة في نظره قصيرة، ومن الأجدر أن لا يبخل بل يجود بماله للمحتاجين. والبيت كناية يعبر فيه أن كل يوم بمثابة خسارة للإنسان، فالحياة في تناقص مستمر، ولا مهرب للموت.
فالمعلقة تعد تأملا فلسفيا في الحياة والوجود، فليست معلقته مجرد قصيدة تقليدية، بل هي إعلان وتمرد على سلطة ظالمة "سلطة القبيلة".
ويقول طرفة:

فَمَا لِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكـاً مَتَـى أَدْنُ مِنْهُ يَنْـأَ عَنِّي ويَبْعُدِ
وأَيأَسَنِـي مِنْ كُـلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُـهُ كَـأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسِ مُلْحَدِ
عَلَى غَيْـرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِـي نَشَدْتُ فَلَمْ أَغْفِلْ حَمُوْلَةَ مَعْبَـدِ
وَقَـرَّبْتُ بِالقُرْبَـى وجَدِّكَ إِنَّنِـي مَتَـى يَكُ أَمْرٌ للنَّكِيْثَـةِ أَشْهَـدِ
وإِنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَـا وإِنْ يَأتِكَ الأَعْدَاءُ بِالجَهْدِ أَجْهَـدِ
وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ بِكَأسِ حِيَاضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَـدُّدِ
بِلاَ حَـدَثٍ أَحْدَثْتُهُ وكَمُحْـدَثٍ هِجَائِي وقَذْفِي بِالشَّكَاةِ ومُطْرَدِي
فَلَوْ كَانَ مَوْلايَ إِمْرَأً هُوَ غَيْـرَهُ لَفَـرَّجَ كَرْبِي أَوْ لأَنْظَرَنِي غَـدِي
ولَكِـنَّ مَوْلايَ إِمْرُؤٌ هُوَ خَانِقِـي عَلَى الشُّكْرِ والتَّسْآلِ أَوْ أَنَا مُفْتَـدِ
وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَـةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّـدِ
فَذَرْنِي وخُلْقِي إِنَّنِي لَكَ شَاكِـرٌ وَلَـوْ حَلَّ بَيْتِي نَائِياً عِنْدَ ضَرْغَـدِ
فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيْرٍ وَزَارَنِـي نَـونَ كِـرَامٌ سَـادَةٌ لِمُسَـوِّدِ(18)

هذا العتابُ الرقيقُ اللاذعُ على حدِّ تعبير طه حسين يستفزُّ طرفة ليفخر بذاته حتّى لا يفهم منه أنه يقيمُ على ضيم ويتقبل المذلة والهوان، وحتّى يثبتَ لنفسه ما ينبغي من الكرامة وعزة النفس والارتفاع عن الحاجة المذلة. فهو وإن كان صاحبُ قوةٍ وبطشٍ وعزةٍ يرفعها في وجه الغبراء ليسترد بها حقوقه، فإنه لا يقدر على أن يمارس هذا

الفعل مع ابن عمه مالك لما يملأ نفسه من الحب والمودة تجاهه، ولما تأصل داخله من قيم تقدس الترابط الأسري "القبلي"، لذا فهو مكتوف الأيدي برغم قدرته، وهو عاتب متردد برغم قوته، وهنا تبرز إشكالية اصطدام الذات بالمجتمع، غير أن ذات طرفة تنهي تلك الإشكالية إلى شئ من العتب الرقيق المؤلم لا إلى صدام وعنف، فهل تستحق تلك الإبل التي يطالب بها ابن عمه أن تحدثَ بينهما قطيعةً وخصاماً بل وصداماً؟ إن طرفة يرى ألّا مبررَ لكل هذا وإذا كان ليس أمامه إلا أن يتنازلَ عن هذه الإبل، فلطالَما أتلفَ إبله نحراً وذبحاً في غير هوادة كي يطعمَ قومه ويُولِم لهم. فينعمون بلحومها وشحومها في غير حرص منه عليها، هكذا يستمر في الفخر وفي امتداح ذاته بالكرم والسخاء، حين يقول:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ ... خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ
فَآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحِي بِطَانَةً ... لِعَضْبٍ رَقِيْقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
حُسَامٍ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِراً بِهِ ... كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ لَيْسَ بِمِعْضَدِ
أَخِي ثِقَةٍ لا يَنْثَنِي عَنْ ضَرِيْبَةٍ ... إِذَا قِيْلَ مَهْلاً قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي
إِذَا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلاحَ وجَدْتَنِي ... مَنِيْعاً إِذَا بَلَّتْ بِقَائِمَهِ يَدِي
وَبَرْكٍ هُجُوْدٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي ... بَوَادِيَهَا أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ
يَقُوْلُ وَقَدْ تَرَّ الوَظِيْفُ وَسَاقُهَا ... أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمُؤَيَّدِ
وقَالَ أَلا مَاذَا تَرَونَ بِشَارِبٍ ... شَدِيْدٌ عَلَيْنَا بَغْيُهُ مُتَعَمِّدِ
وقَالَ ذَرُوهُ إِنَّمَا نَفْعُهَا لَهُ ... وإِلاَّ تَكُفُّوا قَاصِيَ البَرْكِ يَزْدَدِ
فَظَلَّ الإِمَاءُ يَمْتَلِلْنَ حُوَارَهَا ... ويُسْغَى عَلَيْنَا بِالسَّدِيْفِ المُسَرهَدِ[19]

يرى طه حسين طرفة في هذه الأبيات معتداً بذاته مفتخراً بها وكأنه يغمز ابن عمه مالكًا بتلك الصفات التي توفرت في الشاعر ولم تتوفر لابن عمه، فهو خفيف الحركة يهم سريعاً لنجدة قومه، يتمنطق بسيفه الباتر الذي لا يخذله في النزال ومحاربة الأعداء والذي يثير خوف الإبل منه لتعودها منه كثرة الذبح والنحر، فها هو وقد استل سيفه بعد أن شربَ وسكرَ يُعْمِلُ هذا السيف في رقبة ناقة ضخمة عظيمة اللحم. وها هو والده يلومه في رفق على هذا الاعتداء، ويرى ألّا حرج عليه فيما يفعل فهذا ماله وسيرثه إن عاجلاً أو آجلاً، وهكذا يصور لنا طرفة نفسه كريماً في حالة الصحو والسكر، لا يحفل بجمع المال قدر اهتمامه بتحقق خصال الكرم والشجاعة والمروءة فيه[20]

وعلى ذلك فهو مستحق للثناء الجميل والشكر الجزيل؛ لأنّه لم يشاكل غيره في البخل والضعف، ولا في الطمع والحرص، وكأنّ طرفة يغمز ابن عمه بهذا حين يقول:

فَإِنْ مُتُّ فَانْعِيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ
ولا تَجْعَلِيْنِي كَأَمْرِىءٍ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي ولا يُغْنِي غَنَائِي ومَشْهَدِي
بَطِيءٍ عَنْ الجُلَّى سَرِيْعٍ إِلَى الخَنَى ذَلُولٍ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلَهَّدِ
لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بُغُمَّةٍ نَهَارِي ولا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[21]

هكذا لا يندم طرفة على ما اتّخذه في حياته من نهج وفلسفة يحيا بهما، فالموت نهاية الحياة ولا مفر منه، وعليه أن يعيشَ تلك الحياة ويغترف من لذاتها ما وسعه الاعتراف، وأنْ يسعى للموت في شجاعة لا يخشى خصومة أحد أو عداوته، فكل هذا لن يفيده ولن يكون وسيلة يتحامى بها الموت.

ولقد وجد طه حسين في ذلك مبرّراً يدفعً طرفة كي يعود في نهاية قصيدته إلى فلسفته التي كان فيهاً، مجدداً تهوين الحياة، وتحقير أمرها، وتعظيم أمر الوت[22]

وعلى أيةِ حالٍ فإن عرض طه حسين لهذه المعلقة على هذه الصورة اتّسم بعدة سمات نذكر منها:

أنه لم يتعرض إلى ألفاظ القصيدة وكلماتها بتحليل لغوي دقيق، وإنما اكتفى بنثرِ معانيها في لغة أدبية رشيقة ومحببة إلى القارئ، ولعلّ ذلك راجعٌ إلى أنّ هدفه من هذه المقالات هو الترغيب في هذا الأدب لا التعمق في درسه بصورة مستفيضة، وربّما كان مانعهُ من ذلك أنّ المقالات الأدبية تضيقُ عن أن تتسع لمثل هذا التحليل اللغوي الذي يستغرق العديد من الصفحات، والذي ربّما كان باعثاً على الملل والزهد في هذا الأدب.

أما السمة الثانية، فهي أن طه حسين عرض لتلك المعلقة من منتصفها متأثراً ببقايا نزعة الشك التي ظلت عالقة بنفسية من "في الشعر الجاهلي" فرأى أنه بإزاء بقايا قصيدة عبثت بها يد الانتحال فطولت وزادت فيها، واستند في شكه هذا على تفاوت مستوى اللغة بين الجزء المشكوك فيه وبين باقي القصيدة، كما حاول أن يؤكد شكه في هذا الجزء بأن قارن بين وصف الناقة فيه ووصف الناقة في غيره من شعر طرفة، وانتهى إلى أن هذا الجزءَ مخالفٌ في طريقة الوصف، فنبذه وتجاهله في عرضه للقصيدة.

أما ثالث هذه السمات فهي تلك الانطباعية التي بدت في تعاطف طه حسين مع فلسفة طرفة التي تميز بها عن باقي قومه. بل ربّما كانت سبباً لاستهجان قومه له ولومهم عليه، والواضح أن طه حسين حاول أن يضعَ أيدينا على سر إعجابِهِ بهذه الفلسفة فالتمسها في تشبيهات طرفة وفي طريقة تصويره المبتعدة عن التكلف والملتصقة بالبيئة والناتجة عن تجارب حقيقية واختبار ذاتي للحياة.

أما رابع هذه السمات، فيتضح في سعي طه حسين الدؤوب للتأكيد على ارتباط الشاعر بقومه وببيئته(23)

وهكذا يبدو طه حسين مؤمناً بحتمية قوانين **"تين"** مع تأكيده على أهمية الذاتية في الأدب، لذا فهو يرى طرفة ابناً لبيئته ومجتمعه وعصره وفي ذات الوقت يراه صاحبَ فلسفةٍ ذاتيةٍ تتعارض مع السائد والمشاع في هذه البيئة وهذا العصر، دون أن يؤدي هذا التعارض بين الذات والمجتمع إلى قطيعةٍ وتجافٍ.

وعلى أيةِ حالٍ فإنَّ طه حسين في عرضه لمعلقة طرفة يبدو وكأنّه يعيد النظر في أحكامه السابقة حول شعر الرجل كله، فهو إنْ كان يشك في جزءٍ من هذه القصيدة إلا أنّه لا يثيره في القصيدة بكاملها ولا في شعر الرجل كله.

فكأنّ طه حسين يراجعُ أحكامَه السابقةَ حول شعر طرفة. فيلتزم بقدر معقول من الشك حول أجزاء من القصيدة، مثله في ذلك مثل العديد من دارسي هذا الأدب والباحثين فيه.

كان طرفة إذن مرتبطًا ببيئته، مرتبطًا بقومه، يصوغ تشبيهاته من كلِّ ما حوله وهو بارعٌ متقنٌ في اختيار المشبه به، وإبراز العلاقة بينه وبين المشبه في وضوح تام – كما سبق أن أوضحنا

ومهما يكن الأمر فقد اكتفى طه حسين بهذا القدر من تلك المعلقة ولم يعرض لأبيات الحكمة فيها. وهذا راجعٌ بطبيعة الحال إلى ضيق المقال الأدبي عن الإحاطة بكل جوانب تلك القصيدة، وراجعٌ أيضًا إلى رغبة طه حسين في إثارة الاهتمام بالقصيدة لا دراستها بصورة تحليلية دقيقة.

الخاتمة :

توصلت نتائج البحث إلى الآتي:

. استطاع طه في حديث الأربعاء إعادة قراءة الشعر العربي وفق معايير موضوعية، ويرى طه أنه لا بد للشاعر أن تبرز صورته من خلال شعره، فالشعر مرآته التي

تتبلور فيها عواطفه وشخصيته، بحيث عندما تقرأ شعره تشعر فيها بروح واحدة ونَفَسٍ واحد، ولا بد أن يكون أيضا الشعر مرآة للعصر والمجتمع.

. يبدو لنا أن طه حسين مهّد الطريق لمنهج حديث يستطيع الباحثون أن يدرسوا الشعر من خلال نظرية الشك، وفي ضوء النقد التاريخي، والأنثروبولوجي.

. لم تعد القراءات النقدية تنظر للشعر الجاهلي بطريقة التقديس وأنها حقائق مطلقة، فطه أحدث تحولا جوهريا في النقد.

. يُعدُّ طه أول من نثرَ القصائدَ الجاهليةَ كاملةً، مستخدما لغة سهلة قريبة للقارئ، فالمعنى ليس مقتصرا على المتخصصين في الأدب، بل في متناول الجميع، فلم يكتفِ أن يحول القصائد نثرا، بل كان يضيف إليها شكوكه وتحليلاته النقدية.

. أثبت طه أن لطرفة نظرات فلسفية في شعره، كنظرته للموت والحياة، وحتمية الموت الذي لا مفرَّ منه، ودعا إلى الاستمتاع بالحياة، ونقده للنظام القبلي وعدم عدالته، وانتقاده للبخل والأنانية، ورفضه للخنوع والخضوع: إذا القوم قالوا من فتى...

. يُقرَأُ كتابُ حديثِ الأربعاء بحذرٍ وفطنةٍ؛ لأنّ فيه أفكارا تُعدُّ مخالفةً لعقيدتنا الإسلامية، كإنكار طه المعلوم من الدين بالضرورة، أنكر وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

يوصي الباحثُ الدارسين بالتعمق في تحليل كتاب حديث الأربعاء، وأن يسبروا إغوار فكر طه النقدي من خلال أفكاره ورؤياه التي بثها في كتابه، وفحص الأسس المنهجية التي اعتمدها طه حسين في كتابه، ودراسة موقف الكاتب من التراث، وكيف تعامل مع الروايات الأدبية القديمة؟ وموقفه من قضية الانتحال. وأن يعيدَ الباحثون قراءةَ حديثِ الأربعاء في ضوء النقد الحديث، "الحداثي وما بعد الحداثي" ومدى صمود أفكار طه أمام الدراسات المعاصرة.

الهوامـــــــــــش:

[1]- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، دار الكتب العلمية ط1، بيروت لبنان، 2001م، ص58.
[2]- دراسات في الشعر الجاهلي، يوسف خليف، دار غريب للطباعة والنشر، 2001م، ص156.
3ـ شرح المعلقات السبع، أبوعبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت، 1992م، ص50.
4ـ حديث الأربعاء، طه حسين ج1، ص68 .
[5]- منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد زكي العشماوي، جامعة الإسكندرية، 2002م، ص
6ـ الشعر العربي في العصر الجاهلي، محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، ط1989،3م، ص51.
7 -انظر العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف ص430.
8- انظر : حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1، ص62-63.
9- انظر حديث الأربعاء، ج،1 ص44.
[10] - منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، ص
11- حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1 ص64.
12- شرح المعلقات السبع، للزوزني ص45-46 سقط من روايته بيت قبل البيت الأخير هو:
متى تأتني أصبحك كأساً روية وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد
13- شرح المعلقات السبع، للزوزني ص46-47.
14- انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1 ص67.
15- شرح المعلقات السبع، للزوزني ص47-48.
16- شرح المعلقات السبع، الزوزني ص48-50.
[17]- منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل،
18- المعلقات السبع، للزوزني ص 51-53.
19- المعلقات السبع – للزوزني ص53-55.
20- انظر حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1، ص78-79.
21 -المعلقات السبع، الزوزني ص55 - 56.
22- حديث الأربعاء، د. طه حسين ج1، ص80.
[23]- منهج طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، أحمد صلاح كامل، ص244.